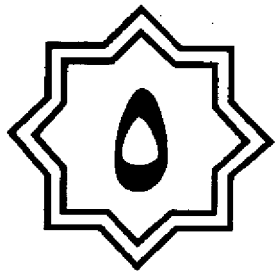

شبهات حول الحج وردودها

حكمة تحديد أماكن الإحرام

س ٨٣ : في الحقيقة نريد أن نعرف الحكمة في موضوع تحديد الرسول ﷺ لأماكن الإحرام ونية الإحرام منها؟

ج : ربنا جلت قدرته لم يكلف الإنسان أن يحرم من بيته، وأخبرنا بأن الإحرام واجب عندما يصل إلى محاذاة الحرم، والحقيقة - كما قال الشيخ ابن محمود - إن ما تمر عليه بالطائرة ليس محاذياً، المحاذى أفقيا وليس رأسيًا من فوق، فهذا أمر إجتهادى منا، نحن نقيس عليه، وهذا إلحاق بالنص وليس منصوصا عليه، فهو اجتهاد منا لكنه اجتهاد فيه تيسير على البشر، وكما قلنا: إن المالكية أجازوا فيما هو أسهل من هذا أن يحرم الحاج بعد النزول من البحر، فلماذالا يحرم بعد النزول من الجو، وخصوصًا لمن يحج أول مرة، فالإنسان فى حجه لأول مرة يتحرى أكثر، يحاول أن يحج حجة مضبوطة على جميع المذاهب، إنما أكثر الحجاج للأسف ممن حجوا مرات عديدة، يعنى حوالى ١٥ فى المائة فقط هم الذين يحجون للمرة الأولى و٨٥ فى المئة ممن يحجون للمرة الثانية أو الخامسة أو العاشرة أو العشرين أو الأربعين، هؤلاء ليس ضروريًا أن نشدد عليهم، نشدد فقط على من يحج للمرة الأولى حتى يحج حجة مضبوطة ولا داعى أن نعسر على الناس ما يسره الله عز وجل.

شبهات حول الحجر الأسود

س ٨٤ : وقع فى يدى كتيب أثار فيه مؤلفه شبهات حول الحجر الأسود، وردّ الأحاديث التى وردت فى استلامه وتقبيله زاعما أنها تنافى دعوة الإسلام للتوحيد، ونبذ الأوثان.

- فما رأيكم فى هذا الموضوع؟

ج : الدراسة السطحية آفة من آفات المتعلمين عندنا، والتعجل فى إصدار الحكم قبل الرسوخ فى العلم، ودون الرجوع إلى أهل الذكر، ثمرة سيئة لهذه السطحية. وما أصدق ما قيل: إن الذين يتشككون فى الدين إما جهلاء،

أو متعلمون تضخمت فى أذهانهم بعض المعلومات، على حساب معلومات أخرى أهم منها. ذلك أن إثارة الشبهات حول موضوع كاستلام الحجر الأسود، ورد الأحاديث الواردة فيه ضلال مبين، وغفلة عن طبيعة العلم، وطبيعة الدين.

طبيعة العلم: أن ترد جزئياته إلى قواعده، وعلم الحديث له قواعده وأصوله التى وضعها علماؤه لمعرفة المقبول من المردود فى الأحاديث، وطبقوها بكل أمانة ودقة ما استطاعوا، وبذلوا جهود الأبطال فى سبيل تنقية السنن النبوية، وتبليغها إلينا. أما قيمة الأحاديث التى رووها فى شأن الحجر الأسود، فنورد عليك بعضها:

عن ابن عمر – وسئل عن استلام الحجر الأسود – فقال: رأيت رسول الله ﷺ يستلمه ويقبله (رواه البخارى).

وعن نافع قال: رأيت ابن عمر استلم الحجر بيده ثم قبل يده، وقال: ما تركته منذ رأيت رسول الله ﷺ يفعله (متفق عليه).

وعن عمر رضي الله عنه: أنه كان يقبل الحجر الأسود ويقول: إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك. (رواه البخارى ومسلم وأحمد وأبو داود والنسائى والترمذى وابن ماجة).

قال الطبرانى: إنما قال عمر ذلك، لأن الناس كانوا حديثى عهد بعبادة الأصنام، فخشى أن يظن الجهال أن استلام الحجر من باب تعظيم الأحجار، كما كانت تفعل العرب فى الجاهلية، فأراد أن يعلم الناس أن استلامه اتباع لفعل رسول الله ﷺ لا لأن الحجر يضر وينفع بذاته، كما كانت الجاهلية تعبد الأوثان.

والأحاديث المذكورة أحاديث قولية صحيحة ثابته، لم يطعن فيها عالم من علماء السلف أو الخلف.

على أن الأمر أكثر من هذا، فإن هذه سنة عملية متواترة تناقلتها الأجيال منذ عهد النبوة إلى الآن بلا نكير من أحد، فأصبحت من مسائل الإجماع، ولا تجتمع الأمة علي ضلاله، وهذا وحده أقوى من كل حديث يروى، ومن كل قول يقال. ومن المقرر لدى أهل العلم جميعًا: أن التواتر يفيد العلم اليقينى.

هذا من ناحية العلم. وأما من **ناحية الدين**: فالمؤمنون يعرفون تمام المعرفة أن الدين يقوم أول ما يقوم علي الإيمان بالغيب فى جانب الاعتقاد، وعلى الخضوع والانقياد لأمر الله فى جانب العمل وهذا هو معنى لفظ الدين، ولفظ العبادة،والإسلام – باعتباره ديناً – لا يخلو من جانب تعبدى محض، وإن كان أقل الأديان في ذلك. وفى الحج خاصة كثير من الأعمال التعبدية، منها تقبيل الحجر الأسود.

والأمور التعبدية هى التى تعقل حكمتها الكلية، وإن لم يفهم معناها الجزئى، والحكمة العامة فيها هى حكمة التكليف نفسه، وهى ابتلاء الله لعباده من يتبع الرسول ممن ينقلب علي عقبيه.

الأمور التعبدية هى التى تكشف عن العبودية الصادقة لله من العبودية الزائفة. العبد الصادق يقول عند أمر الله مقالة الرسول والمؤمنين: ﴿ **سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا** ﴾ [البقرة: ٢٨٥] ، والعبد المتمرد على ربه يقول ما قاله اليهود من قبل: ﴿ **سمعنا وعصينا** ﴾ [النساء: ٤٦]، ولو كان كل ما يكلف به العبد مفهوم الحكمة للعقل جملة وتفصيلاً، لكان الإنسان حينما يمتثل إنما يطيع عقله قبل أن يكون مطيعاً لربه.

وحسب المسلم أنه – حين يطوف بالبيت، أو يستلم الحجر – يعتقد أن هذا البيت وما فيه من آثار إبراهيم عليه السلام، وَمَنْ إبراهيم؟ إنه محطم الأصنام، ورسول التوحيد وأب الملة الحنيفية السمحة ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [النحل: ١٢٠].

شبهة عبادة الحجر الأسود

؟ س٨٥ : بعض المستشرقين والمبشرين وأشباههم يثيرون شبهة سخيفة. وهى أن المسلمين يعبدون الحجر الأسود فكيف نرد علي هذه الشبهة؟

ج : الواقع أن المسلمين لا يعبدون إلا الله عز وجلَّ، كان المشركون قد

أدخلوا فى الحج بعد ابراهيم عليه السلام بعض أوضار الوثنية وبعض أدران الجاهلية حتى إنهم كانوا يقولون فى التلبية: لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو تملكه وما ملك ... يعنون الأصنام، فجاء الإسلام وأبطل هذا، قال: «لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك .. إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك».

التوحيد هو جوهر الإسلام وروح الإسلام، ولذلك لا يوجد فى الحج أى شيء يمس هذا التوحيد، الحجر الأسود هو مبدأ الطواف، يعنى لا بد من مكان ننطلق منه فهو نقطة الانطلاق، فمن عند الحجر يبدأ الطواف وينتهى عنده.

ثم الحج هو فى الحقيقة عبادة مليئة باللغة الرمزية، ما معنى اللغة الرمزية؟ يعنى مثلاً تجد الدول لديها شيء أسمه العلم .. ما هو العلم؟ خرقة من القماش، فيها خطوط حمراء أو بيضاء أو صفراء، أو نجوم وشيء من هذا، ولكن يعتبرونها رمزاً للدولة، ولو أن واحدا داسها أو أهانها أو نحو ذلك لاعتبر ذلك إهانة للدولة، ولذلك نرى الآن بعض الفلسطينيين عندما يحبون أن يغيظوا إسرائيل يحرقون العلم الإسرائيلى مثلاً، هذه لغة الرمز. والشاعر العربى عبر عن هذا قديمًا حينما قال:

أمـــر على الديار ديار ليلى ... أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حب الديار شغفن قلبى ... ولكن حب من سكن الديارا

فنقبل الحجر الأسود ليس لأن الحجر الأسود له قدسية خاصة، أو لأنه يعبد من دون الله، ولذلك من المأثور أن الواحد يقول عند الحجر الأسود: اللهم إيمانًا بك، وتصديقًا بنبيك، ووفاء بعهدك» أى: إيمانًا بك وليس بالحجر، وتصديقًا بالتوحيد وليس بالوثنية، ووفاء بعهدك؛ وعهده التوحيد: ﴿ **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ** ﴾ [يس: ٦٠ - ٦١].

ولذلك عندما وقف عمر بن الخطاب رضى الله عنه عند الحجر الأسود قال: أيها الحجر إنى أقبلك وأنا أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك أى أنه فعل ذلك التزاماً بفعل وقول النبى ﷺ: «خذوا عنى مناسككم» أقبلك اتباعاً وليس اعتقاداً فى أنك تضر أو تنفع.

وهذه عقيدة كل مسلم، ولذا يستحب إذا قبل الحجر الأسود أو استلمه، أو أشار إليه من بعيد، كما يفعل معظم الحجاج اليوم، أن يقول: باسم الله، والله أكبر. أجل باسم الله وحده، لا باسم الحجر، والله أكبر من كل ما سواه، لأنه الخالق، وما سواه مخلوق، فهل يقول هذا من يعبد الحجر؟

إن المسلم لا يعبد إلا الله، ولا يستعين إلا بالله، وهو ما يعبر عنه في كل ركعة من صلواته اليومية حين يقرأ فى فاتحة الكتاب: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [الفاتحة: ٥].

* * *